قصّة حَنينة وابنها صَموئيل عليه السلام

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة الكلمة © 2020

مدخل إلى قصّة حَنينة وابنها صَموئيل (عليه السلام)

تبدأ هذه القصّة مع ذكر حنينة المؤمنة المخلصة التي عانت من العقم فذلّها الناس. ثمّ استجاب الله لدعائها ورزقها ولدا سمّته صموئيل ويعني هذا الاسم الله سميع. ونذرته لخدمة الله طيلة أيام حياته.

وكان هناك رجل دين من جماعة الأحبار اسمه عالي يشرف على تربية صموئيل (عليه السلام)، فأرشده واعتنى به، فنشأ صموئيل في كنفه في حرم خيمة بيت الله. وكان لعالي ولدان لم يحسن تربيتهما لكنهما أصبحا من رجال الدين، وكانا يقومان بمهامّهما بأنانية وازدراء. وكما يخبر الطبري في تاريخه: "كانا إذا جاءت النساء يصلين في القدس [أي الحرم المقدّس] يتشبّثان بهن".[٦]

ورغم التحذيرات المتكرّرة من الله لم يعاتب عالي ابنيه ولم يمنعهما من تصرفهما المشين. وفي النهاية سمح الله أن يُقتل هذان الولدان في معركة عندما كانا يرافقان صندوق ميثاق الله (أي تابوت عهد الله).

وكان النبي صموئيل (عليه السلام) شخصيّة محوريّة في تاريخ بني يعقوب، إذ تمثّل فترة حياته زمن الانتقال من عصر الحكام المناصير (أي القضاة حسب التعبير الكنسي) إلى عصر الملوك. وطالب بنو يعقوب بشدّة من النبي صموئيل أن ينصّب عليهم ملكا شأن بقية الأمم، فحزن صموئيل من طلبهم هذا، لذلك أوحى الله إليه أنّ طلبهم في الحقيقة بمثابة رفضهم لله ملكا عليهم. فردّ النبي صموئيل على الناس قائلا إنّ الملك سيتجبّر عليهم إلى درجة أنّهم سيبتهلون إلى الله أن يفرّج عنهم ولكنّه لن يستجيب لهم.

ومن خلال أحداث قصّة النبي صموئيل يمكننا أن نرى أنّ استجابة الإنسان لله تؤدي إلى تداعيات كثيرة. كذلك أوحى الله إلى صموئيل: ((إنّي أنا الله أكرّم من يكرّمني ومن يحتقرونني يَصغُرون)) [كتاب النبي صموئيل الأوّل 2: 30].

---

[٦] **الطبري**، *تاريخ الرسل والملوك*، ط 2، دار التراث بيروت، لبنان، 1387هـ، ج 1، ص 470.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة حَنينة وابنها صَموئيل (عليه السلام)

حنينة وزوجها ألقان[٧]

في منطقة أفرايم الجبلية وتحديدا في بلدة الرّامة، يقطن ألقان بن يَروحام. وتزوّج ألقان بامرأتين، هما حَنينة وفَنينة. رُزقت فَنينة بأولاد، أمّا حَنينة فكانت عاقرا.

وكان ألقان يحجّ كلّ سنة إلى منطقة شيلوه ليعبد الله العزيز القدير ويقدّم له أضاحي. وفي هذه المنطقة كان يقيم ابنا الحَبر عالي حُفني وفينحاس، وهما أيضا حبران في خدمة الله. ودأب ألقان على إعطاء زوجته فَنينة وبنيها وبناتها حصصًا من الذبيحة كلّما قدّم أضحيةً لله. أمّا حنينة فكان يعطيها نصيبًا مميزًا لأنّه يحبّها، رغم أنّ الله جعلها عاقرًا. وبسبب عقمها كانت ضرّتها فنينة تضربها وتهينها، ويحدث ذلك سنويا مع موعد حجّ ألقان إلى بيت الله، فتنهر فنينة حنينة فتبكي وتمتنع عن الأكل. فيقول لها زوجها ألقان: "يا حنينة، ما سبب بكائكِ وانقطاعك عن الطعام؟ ولماذا أنت كئيبة عليلة القلب؟ ألا تعلمين أنّي خيرٌ لكِ من عشرة أولاد تنجبينهم؟"

حنينة والحبر عالي[٨]

وفي أحد مواسم الحجّ، وبعد أن أكل الجميع وشرب في شيلوه، قامت حَنينة، وانزوت في حرم بيت الله تستغيث الله وتناجيه، وكان الحَبر عالي حينئذ جالسا على كرسيّ عند مدخل حرم بيت الله. وتضرّعت حنينة إلى الله بمرارة وحرقة وناجته باكية، ونذرت نذرًا له تعالى وقالت: "اللهمّ يا عزيز يا قدير، إذا نظرتَ إلى شقاء أمتك واستجبتَ لدعائي ورزقتَني مولودًا ذكرًا، جعلتُه

---

(٧) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 1: 1-8.

(٨) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 1: 9-18.

منذورًا لك طوال حياته، وعلامة ذلك ألا يحلق شعر رأسه أبدًا".

وظلّت حنينة وقتًا طويلاً تتضرّع إلى الله، وفي الأثناء كان الحبر عالي يراقب حركات شفتيها. لأنّها كانت تصلّي سرًّا، وشفتاها في حركة دؤوبة دون أن تجهر بكلمة واحدة، فظنّ الحبر عالي أنها تحت تأثير الخمر. فقال لها: "لا تقربي الصلاة وأنت في حالة سكر! عودي إلى رشدكِ". فأجابته منكسرة: "لا يا سيّدي! أنا امرأةٌ عليلة القلب، أحمل حزنًا دفينًا ولم أشرب خمرًا ولا مسكرات، بل أناجي الله ربّي. فلا تحسب أمتك من بنات السّوء، بل مكثت هنا وقتًا طويلاً من شدّة الغمّ والأسى". فأجابها الحبر عالي: "اِذهبي في أمان الله، والله الّذي يعبده بنو يعقوب يستجيب لدعائك". فقالت: "ليتني أحظى برضاك يا سيّدي". ومضت في حال سبيلها. وتفتحت شهيتها، فأكلت وزال غمها.

مولد صموئيل (عليه السّلام) ونذره لله[٩]

وفي الصباح الباكر، صلى ألقان وأهل بيته وسجدوا لله، ثمّ ولّوا أدراجهم إلى بيتهم في بلدة الرّامة. وعاشر ألقان زوجته حَنينة واستجاب الله لدعائها، فحبلت في تلك السّنة وولدت ولدًا دعتْهُ صَموئيل وفسّرت هذا الاسم وقالت: "طلبتُهُ من الله".

وفي موسم الحجّ الموالي، ذهب ألقان مع جميع أهل بيته إلى شيلوه ليقدّم لله الأضحية السّنوية ويوفي بنذره. لكنّ زوجته حنينة اعتذرت وقالت لزوجها: "عندما أفطم ابني آخذه إلى شيلوه ليقيم هناك في حرم بيت الله كلّ حياته". فأجابها ألقان: "افعلي الصواب وتمهلي إلى حين فطامه، فيتحقّق وعد الله فيه". فَظلت حنينة في بيتها تُرضع ابنها حتّى فطامه. ولمّا فطمتْهُ حجّت به إلى حرم بيت الله في شيلوه رغم صغر سنّه، وأخذت معها عجلاً بلغ ثلاث سنين وقفّةً من دقيق وقربة شراب. فذبحوا العجل وقدّموا إلى الحبر عالي الصبيّ وهو ما يزال فطيما. وقالت له حنينة: "هل تذكرني يا سيّدي؟ أنا المرأة الّتي وقفت أمامك هنا تتضرّع إلى الله. وقد طلبتُ منه آنذاك أن يرزقني هذا الصبيّ، فرزقني ما طلبتُ. فوهبتُه لله تعالى كلّ حياته، فهو

---

[٩] استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 1: 19-28.

للوهّاب." وهناك سجدوا جميعًا.

نشيد حنينة[1]

وتضرّعت حَنينة لربّها وقالت:
"ربّاه قد أقبلتُ عليك بمهجتي تهليلا وحمدا
ورفعتُ رأسي بين الناس إجلالا ومجدا
يا ربّ كم أفتخر على القوم الظالمين
وأبتهج بك يا ناصري العظيم
أنت الله لا شريك لك،
وحدك القدّوس لا ناصر سواك.
أيّها الناس، لا تنطقوا تبجّحا وخُيلاء
ولا تتفوّهوا بكبرياء
لأنّ الله بصيرٌ عليمٌ
ويضع أعمال البشر في الموازين.[2]
فتنكسر بك يا ربّ أسلحة الجبابرة الأقوياء
وتمنح القوّة للبائسين الضعفاء
كذلك يصبح الغني أجيرًا
يبحث عن قوت يومه ذليلا صغيرا
أمّا البائس فقد اكتفى بما عنده واستغنى.
قد ولدت العاقر سبعة أولاد،
أمّا الولود فقد ذوت كرماد.
إنّ الله هو المحيي والمميت
وهو الخافض إلى القبر والرافع منه.
هو المانع والمُغني
يذلّ مَن يشاء ويرفع مَن يشاء.[3]

---

(١) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 1-11.

(٢) انظر سورة الأنبياء: 47.

(٣) انظر سورة آل عمران: 26.

يبعد المساكين
عن التّراب والعراء
ويرفع البائسين
عن المزابل والطين
يُجلسهم مع النبلاء
ويمنحهم مقاما مع الشرفاء،
لأنّ لله أعمدة الأرض ورواسيها،
عليها ثبّت الدنيا وما فيها،
يحفظ مسعى عباده المخلصين،
والأشرار في الظلمات يهلكون
إنّ النصر للإنسان بك أيّها القويّ المتين.
فأعداؤك كلّهم ينكسرون
حين ترسل عليهم الصيحة من عُلاك
فأنت يا الله تجزي في الأقاصي العالمين
وتشدّ أزر الملك الذي اخترته فوق الحاكمين
وترفعه بالعزّة والتعظيم".

وبعد انتهاء موسم الحج، عاد ألقان وزوجته حنينة إلى بيتهما في الرّامة، وتركا ابنهما صموئيل ليخدم الله في الحرم الشريف عند الحبر عالي.

صموئيل (عليه السّلام) في شيلوه[٤]

وسخّر صَموئيل (عليه السّلام) نفسه لخدمة الله منذ صباه، وكان يرتدي صُدرةً من كتّان كما يفعل الأحبار. وكانت أمّه حَنينة تخيط له كلّ سنة جبّة صغيرة، وتأتيه بها عندما تحجّ مع زوجها، لتقديم الأضحية السنويّة. فيطلب لهما الحبر عالي بركة من الله قائلاً: "ليرزقك الله نسلاً من هذه المرأة بدل الابن الّذي وهبته لله تعالى". وبعد انتهاء مراسم الحجّ يعودان إلى بيتهما في بلدة الرامة.

وبارك الله حنينة، فرُزقت ثلاثة بنين وبنتين. وشبّ صَموئيل (عليه السّلام)

---

[٤] استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 18-26.

في كنف الله، أمّا صَموئيل (عليه السّلام) فكان ينمو في القامة والتقوى، ويومًا بعد آخر ازداد رضى الله عنه وأحبّه النَّاس.

أبناء الحبر عالي[٥]

وكان ابنا الحبر عالي حُفني وفينحاس من المفسدين الذين لا يتّقون الله ولا يكترثون به. ووصل بهما الأمر إلى أخذ نصيبهما من اللحم دون مراعاة الشريعة. فعندما يقدّم أحد الناس أضحية، وأثناء طبخه لحم هذه الأضحية، يرسلان خادمهما، وبيده شوكةٌ مسننة بثلاث شُعَبٍ، فيضربها في المِرجَل أو الطبق أو المِقلى أو القِدر، ويأخذ ما التقطته الشوكة نصيبًا لهما. وبهذه الطريقة كانا يُعاملان جميع بني يعقوب القادمين إلى شيلوه لتقديم الأضاحي لله. وزيادةً على ذلك، كان خادمهما يأتي إلى صاحب الأضحية قبل أن يحرق شحمها لله، حسب الشريعة، ويطالبه قائلاً: "هات لحمًا لنشويه، فالحبر لا يقبل منك لحمًا مطبوخًا بل يريده نيّئًا". فإذا أجابه صاحب الأضحية: "تمهل حتّى يحترق الشّحم، فهو لله، ثمّ خُذ ما طاب لك". فيجيبه الخادم حانقًا: "كلاّ، بل عليك أن تعطيني ما طلبتُ الآن، وإلاّ أخذْتُه منك بالقوّة". وكانت خطيئةُ حُفني وفينحاسُ تشتدّ يوما بعد يوم أمام الله لأنّهما استهانا بذبيحته تعالى. أمّا الحبر عالي فصار شيخًا هرمًا، وعلم بكلّ ما فعله حُفني وفينحاس في حقّ بني يعقوب، وكيف كانا يعاشران النساء اللّواتي كُنّ يخدمنَ عند باب خيمة بيت الله. فقال لهما: "لماذا فعلتم ما فعلتم؟ وما هذه الأخبار الفظيعة التي وصلتني عنكم من الناس؟ يا ابنيّ توقفا عن صنيعكما، فما شاع عنكما سيء للغاية، فأنتما تدفعان قوم ميثاق الله إلى المعصية. فإن أخطأ إنسان في حقّ إنسان، فإنّ الله يحكم بينهما. ولكن إن أخطأ إنسان في حقّ الله، فمَن يشفع له؟" ولكنّ حُفني وفينحاس لم يسمعا كلام أبيهما، لأنّ الله أصدر عليهما حكمه بالموت.

---

[٥] استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 12-17.

نبوءة الله عن بني عالي[٦]

وجاء نبيٌّ[٧] إلى الحَبر عالي وقال له: "قال الله تعالى: تجلّيتُ لبني سلفك هارون، عندما كانوا في مصر في ديار فرعون، واخترتُ من بين جميع عشائر بني يعقوب بيت هارون، ليكون منه أحبار يخدمونني ويقيمون الدين، ويقدّمون الأضاحي في المذبح ويحرقون البخور، وأثناء العبادة في الحرم يكتسون كساء الأحبار على الصدور. وقد أعطيتُهُم حصّة من جميع الأضاحي الّتي يقدّمها لي بنو يعقوب وهم يعبدون. فلماذا ببيتي المقدّس تستهينون؟ ولماذا لا تقيمون وزنا لكلّ ما أمرتُ بتقديمه من الأضاحي والقرابين؟ ولماذا بجّلتَ عليّ نفسك وولديك، حتّى تضخّمت أجسامكم؟ وتأكلون بنهمٍ وشراهة أفضل القرابين. لذلك أوحى الله ربّ بني يعقوب: "لقد جاء وعدي من قبل أن أجعل بيتك وبيت أبيك في خدمتي على مدار السنين، لكنّي في حلّ من هذا الوعد بداية من هذا الحين. إنّي أنا الله أكرم من يُكرِمني، ومن يحتقرونني يَصغُرون. سيأتي يوم فيه أنزل عليكم العقاب، وفيه أُهلك من بيتك وعشيرتك كلّ الشّباب، فلا يبلغ الشيخوخة أحد من هؤلاء الفاسدين. وينعم بنو يعقوب برغد الهناء، أمّا أنت فتكون في محن وبلاء. ولا أحد منكم يبلغ الكبر ويصبح من المسنّين. وإن أبقيتُ أحدكم ليقدّم لي الأضاحي والقرابين، أجعله عليل القلب كليل العيون. ويفنى كلّ نسلك، وفي أوج شبابهم يهلكون. وحتى ترى صدق الوعيد، يموت ابناك حُفني وفينحاس في يوم واحد. وأعيّن حَبرًا أمينًا يعمل على مرضاتي، وأُشُدُّ عزم أفراد عائلته ليخدموا الملك المختار مخلصين. وكلّ من يبقى من ذرّيّتك على قيد الحياة، يأتي إلى هذا الحبر ويرتمي أمامه من أجل قطعة من الفضّة أو خبز فُتات، ويقول له ملتمسًا: "أرجوك دعني أساعد الأحبار حتى أجد ما آكل وما أقتات".

---

(٦) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 27-36.

(٧) المقصود هنا نبي من أنبياء بني إسرائيل لم يرد ذكر اسمه تحديدا، وهو ليس ملاكا مرسلا من الله بل إنسانا.

الله يدعو النبي صموئيل[٨]

أمّا الصبيّ صَموئيل (عليه السّلام)، فكان يخدم الله تحت إشراف الحبر عالي الذي هرم وضعف بصره. وفي تلك الفترة قلت الرؤى ولم ينزل وحي من الله. وذات ليلة كان الحبر عالي نائمًا في غرفته. بينما نام صَموئيل (عليه السّلام) في باحة الحرم حيث صندوق الميثاق.[٩] وكان مصباح بيت الله لا يزال مشتعلا. وفي الأثناء، أوحى الله إلى صَموئيل (عليه السّلام) ودعاه. فأجاب: "نعم يا سيّدي". وأسرع إلى الحبر عالي وقال له: "لقد ناديتني يا سيدي، فها أنا أمامك". فأجابه الحبر عالي: "ما ناديتك. عد إلى نومك". فرجع (عليه السّلام) ونام. فدعا الله صَموئيل ثانيةً، فقام وأسرع إلى الحبر عالي مرّة أخرى وقال له: "لقد ناديتني يا سيدي، فها أنا أمامك". فقال له: "ما ناديتك يا ابني. عد إلى نومك". ولم يفهم صَموئيل (عليه السّلام) أن الله يخاطبه لأنّه لم يجرّب الوحي من قبل. فعاد الله ودعا صَموئيل مرّة ثالثة، فقام صَموئيل وأسرع إلى الحبر عالي وقال له: "لقد ناديتني يا سيدي، فها أنا أمامك". فأيقن الحبر عالي أنّ الله يدعو الصبيّ صَموئيل، فطلب منه قائلا: "عد إلى نومك، وإن ناداك الصوت مرّة أخرى فأجبه: لبّيك ربي". فعاد صَموئيل (عليه السّلام) إلى فراشه ونام.

فتجلّى الله إلى صموئيل ودعاه كالمرّات السابقة: "صَموئيل، يا صموئيل". فأجاب (عليه السّلام): "لبّيك ربي ها عبدك يُصغي". فأوحى الله إليه: "سأقيم عملاً في بني يعقوب وكلّ مَن يسمع به يقف مذهولاً. وفي اليوم الذي أحدّده أُنفّذ وعيدي نهائيا في نسل الحبر عالي. فقد أنذرتُهُ بأنّي سأقضي على نسله إلى الأبد، لأنّه علم أنّ بنيهِ وقعوا في الإثم، ولم يردعهم. فأقسمتُ، لا أضحية ولا قربان يمحوان إثمه وإثم نسله إلى الأبد".

ونام النبي صموئيل حتّى الصّباح، ثمّ فتح أبواب حرم بيت الله، وخاف أن يبوح بأمر الرؤيا إلى الحبر عالي. لكن الحبر عالي دعاه وقال له: "يا ابني صَموئيل"، فأجابه: "نعم يا سيّدي." فقال له: "أخبرني بما أوحى الله إليك،

---

[٨] استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 3: 1-21.

[٩] استعملت الترجمات التاريخية هنا مصطلح "تابوت العهد".

وإن أخفيتَ عنّي كلمةً واحدة من كلماته، فليعاقبك الله عقابا شديدا". فأخبره صموئيل (عليه السّلام) بكل ما جاء في الوحي ولم يخف عنه أمرًا. فقال الحبر عالي: "هذه مشيئة الله فلا رادّ لها".

وكبُرَ النبي صموئيل برعاية الله، ولم يُهمل أمرًا واحدًا ممّا جاءه في الوحي. وعلم بنو يعقوب، من دان في الشمال إلى بئر السبع في الجنوب، أنّ الله اختار صموئيل نبيًّا. وعادت تجلّيات الله لصموئيل (عليه السّلام) في شيلوه، وأوحى إليه.

وظلّ صموئيل (عليه السلام) حاكما مُناصرا لقومه بني يعقوب كلّ أيّام حياته.